طابع الحديث الصحيح ،
يدل عليه ، ويحتم الاستشهاد به

إذا كنت لا تجد شخصين يتفقان تمام الاتفاق فى الصورة الخلقية التى تنطبع فى العين بمجرد الرؤية – فإنك لا تجد كذلك أديبين يتفقان تمام الاتفاق فى آثارهما الأدبية ، ومهما كان بينهما من التشابه والاقتراب فهو تشابه المختلفين اللذين يتفقان فى بعض السمات ، ويختلفان فى البعض الآخر ، وإذا جاء التقارب المتشابه قليلاً أو كثيرًا بين أديبين متوسطى المكانة ، فإنه لا يجوز أن ترى أديبًا كبيرًا يقارب أديبًا كبيرًا فى سماته الأسلوبية ، إلا إذا كان أحدهما يحتذى صاحبه عن عمد . ويقتفيه عن قصد؛ وإذ ذاك لا يصح أن يقترن به اقتران المتماثلين ، بل يذكر معه كما يذكر التلميذ مع الأستاذ ، فوجود الشخصية الأدبية المتميزة دليل واضح على أصالة الأسلوب القوى ، ولكل من اشتهر بالبيان عن جدارة سمته المنفردة وطريقته الواضحة شاعرًا كان أم خطيبًا أم قصاصًا ، حتى لتستطيع أن تعرف بعض آثاره إذا جاءتك غفلاً من إمضائه ، مادمت قد أدمنت قراءته عن بصر ، وتتبعت جولاته الأدبية فيما سطر من آثار .

وقد اشتهر لدى النقاد فى عصرنا الحاضر أن الأسلوب هو الرجل ، ومعنى هذه العبارة : أن كل أسلوب أدبى يحمل طابع صاحبه ، فهو وليد فكره ووحى عاطفته ، وإذا كانت الأفكار تدل على معدن الأديب الذهنى واطلاعه الثقافى قوة وضعفًا ، فإن العاطفة تمد الأسلوب بما يشى بآمال الكاتب وأحلامه ، وما يرسم خلجات وجدانه وهمسات مشاعره . حتى ليجىء أثره الأدبى صورة صادقة من نفسه ، وإذ ذاك يكون الأسلوب هو الرجل دون نزاع .

نسوق هذه المقدمة الواضحة لنريح أنفسنا ممن يزعمون أن بعض الآثار الأدبية قبل عهود التدوين كانت مظنة التغيير والتبديل والحذف والإثبات . فإذا كان ذلك صحيحًا فى بعض وجوهه ، فإن السمات الخاصة للأديب تكون حينئذ أداة التفريق بين الصحيح والموضوع شعرًا أو نثرًا ، وآية ذلك : أنك تقرأ ديوانًا خاصًّا بشاعر جاهلى (كعنترة) فإذا كنت ممن درسوا أسلوب عنترة دراسة لا تغفل طريقة التعبير العامة فى العصر الجاهلى ، والخاصة فى أسلوب الشاعر ، مضافًا إليها ما تعلم من حقائق ثابتة عن طبيعة البيئة ، وتاريخها وأحداثها وما يمكن أن توحى به من أفكار أدبية وصور خيالية ، واتجاهات نفسية ، إذا كنت ممن درسوا عنترة هذه الدراسة ، فإنك تستطيع أن تبين الصحيح من المنحول فى شعره ، ولك أن تصدر حكمك الخاص على قصائد الشاعر فى ظل ما ثبت لديك من قوله الأصيل ، فإذا قال لك قائل بعد ذلك : إن ديوان عنترة يجمع الأصيل والدخيل ، وإن الحكم على الشاعر بما سطره الرواة فى ديوانه لا يحمل عناصر الصدق الصحيح ، إذا قال لك ذلك ، فاعلم أن القائل قد طعن فى غير مطعن ؛ إذ أغفل المقرر المعلوم من سمات الشخصية الأدبية التى تتحدد بوضوح فى الإنتاج الأدبى فتثبت الصحيح ، وتنفى الدخيل .

إن ما نقوله فى عنترة ، نقوله فيما نقل إلينا من النص الأدبى لمحمد ﷺ - وله المثل الأعلى إذا قيس ببشر سواه - فإن بعض رجال اللغة والنحو قد آثروا عدم الاستشهاد بحديثه ، حيث جاز لديهم أن يتصرف الراوى فى اللفظ دون المعنى ، ولو كان هؤلاء نقدة أدب وبيان ما قالوا ذلك ؛ لأن رجال النقد الأدبى يعرفون طابع كل أديب ، ولا يحتاجون فى الحكم على آثاره لسلسلة الرواة ومجموعة الأسانيد كما يفعل رجال الحديث ، بل إن الحديث يصح لدى بعض علمائه ، ويقف منه الأدباء موقفًا مخالفًا ؛ لأنه فى رأيهم لا يحمل الطابع العام كما يعرفونه من سمات محمد البيانية . وسنقف بعد حين لدى حجج المعترضين من رجال النحو واللغة

لنكر عليها بالسلاح العلمى الذى لا يسمح لشبهة ما أن تظل غائمة دون تبديد ، إنما نريد أن نقول الآن : إن دواعى سلامة النص المحمدى كثيرة موفورة ، وهى من القوة والإقناع بحيث لا تحتاج إلى لجاج طويل .

وإذا استطاع بعض الحواريين المخلصين من أتباع (بركليس وديموستين وشيشر) أن ينقلوا خطبهم النثرية الطويلة عن احتفاء ، فإنك لا تجد حواريين أخلص من صحابة محمد وأوُدَّائه ، فكانوا فى مجلسه ينصتون وكأن على رءوسهم الطير ؛ ارتقابًا لكلمة توجه أو خطبة تقال أو حديث يروى ، وكان الشاهد منهم يبلغ الغائب ما فاته من قول الرسول عملاً بقوله : « نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها إلى من لم يسمعها » [1] . وإذا كانوا يتهالكون على ماء وضوئه تبركًا، ويتزاحمون على شعرات رأسه احتفاظًا ببعض آثاره حتى صارت محبتهم له موضع العجب من المشركين ، وحتى قال (أبو سفيان) فى غيظ :

ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا [2] ..

« إذا كانوا يتهالكون على ماء وضوئه وشعرات رأسه ؛ فهم على حديثه أحرص ، وبالانتباه إلى حروفه وكلماته أكلف وأشوق ، ولم تأت لنا هذه الثروة النبوية الضخمة إلاّ عن احتفاء وهيام .

وقد كان رسول الله يعلم أنه ينطق ليبلغ الشاهد الغائب ، فكان لا يسرع القول فى عجلة ، بل يلقى حديثه متهملاً وئيدًا ؛ وقالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصْل يحفظه من جلس إليه » وفى رواية أخرى : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عدّه العاد لأحصاه [3] .

---

(١) مصدرها ص ٣٢ .

(٢) « محمد المثل الكامل » ، ص ٣٩٦.

(٣) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٢٤٨.

قال (أبو هالة) فى وصفه : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها [1] .

فالرجل الذى يكون من سماته التفكير المتصل ، والسكوت الطويل ، وعدم الكلام فى غير حاجة ، جدير أن تنتبه له الأسماع إذا قال ، وإذا كان الإيجاز طابع حديثه – إلا لدى بعض المقتضيات المهمة – فإن كلامه أسرع إلى الحفظ ، لاسيما إذا كان لا يسرد سردًا بل يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه كما قالت عائشة ، وإذا كنا نعلم أنه كان عليه الصلاة والسلام حلو المنطق حسن الترتيل بعيدًا عن التكلف والتمتمة والفأفأة وتعقيد الصوت ، فهو يرسل القول متقن الأداء ، محكم الضبط مشبع اللفظ مساوقًا لطبيعة اللغة . إذا كنا نعلم ذلك عنه فلن نترقب لحديثه غير الحفظ والترديد . وبخاصة إذا كان فى ملأ أمى يعتمد على الحافظة ، ويتفاخر بقوة الذاكرة ، وأى قول يباهى بحفظه الصحابى الصادق أعظم من آيات القرآن وأحاديث الرسول .

ولئن كان بعض علماء اللغة والنحو يخافون تبديل لفظ بلفظ محتجين بجواز ذلك ، فقد فاتهم أن الكثرة الكاثرة من الأئمة لا يجيزون « وأن من أجاز من هؤلاء فقد أراد التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه ؛ فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون »[2] ولسنا نصدر القول دون بينة ؛ فلدينا الأحاديث الصحاح تنطق بتحرز الراوى واحتراسه ، بحيث لو ظن أن كلمة شابهت كلمة فإنه يذكر الكلمتين معًا خروجًا من التبعة ، وفيما يلى أمثلة قليلة من حشد كثير :

---

(١) « المثل الكامل » ، ص ١٤.

(٢) « إعجاز القرآن » للرافعى ، ص ٣٥٩.

١- عن عمران بن حصين[١] : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته»، قال الراوى : وحسبت أن قال والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته .

٢- عن أبى كبشة الأنمارى عن النبى ﷺ قال : « ثلاثة أقسم عليهم : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزًّا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح عليه باب فقر أو كلمة نحوها »[٢] .

٣- عن أبى جهيم رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه ، لكان أن يقف أربعين ، خيرًا له من أن يمر بين يديه » . قال أبو النضر (أحد الرواة) : لا أدرى ، قال أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة[٣] .

٤- عن قبيصة بن مخارق الهلالى قال : تحملت حمالة ، فأتيت رسول الله أسأله فيها فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ... إلى أن قال : ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا أوْ قال : سدادًا من عيش[٤] .

٥- عن أبى موسى رضي الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه فى المدحة ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل[٥] .

٦- عن عبد الله رضي الله عنه قال : خط النبى ﷺ خطًّا مربعًا ، وخط خطًّا فى الوسط . وقال: هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، أو قد أحاط به[٦] .

---

(١) « هداية البارى إلى ترتيب البخارى » ، ج ٢ ، ص ٨.
(٢) « التاج » ، ج١ ص ٥٠.
(٣) « التاج » ، ج١ ص ١٧٧.
(٤) « التاج » ، ج ٢ ص ٣٤.
(٥) « التاج » ، ج١ ص ٥٠.
(٦) « التاج » ، ج ٥ ص ١٧٩.

هذه أحاديث ستة لم أتعمد اختيارها فى بحث دائب ، وإنما تواردت على العين فى نظرات عابرة . فرأيت أن أستشهد بها ؛ لأعلن أن مبدأ الرواية بالمعنى لو كان ذائعًا قبل عصر التدوين ما حرص الراوى على أن يذكر ما اشتبه عليه ، بل لاكتفى بما يبلغ المراد من أحد اللفظين ، وفى رأيى : أن الذين ذهبوا إلى جواز الرواية بالمعنى ، قد لبس عليهم الأمر حين وجدوا اختلافًا يسيرًا فى روايتين للحديث الواحد ، فتوهموا أن الأصل الذى قاله الرسول واحد ، وأن اختلاف الألفاظ من الرواة ، وهو وهم فى أكثره ؛ لأننا نعلم أن الرسول كان يكرر أحاديثه لصحابته فى جلساته المتعاقبة ليسمع من لم يكن سمع ، وقد يبدل بعض الألفاظ فى مجلس سابق ببعضها الآخر فى مجلس تال : ثم يروى من سمع المجلسين كما سمع ، فتختلف الروايتان فى الألفاظ ، ويظن بعض الناس أن الحديث قد روى بمعناه ، ولكن تكرار القول من الرسول يفسر هذا التغيير فى النص – فى أكثر أحواله – ولنا أن نضرب على ذلك بعض الأمثلة بما يلى :

١- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يمسك نفسه عند الغضب[١] . مع رواية عبد الله بن مسعود : أن رسول الله ﷺ سأل : ما تعدون الصرعة ؟ قلنا : الذى لا يصرعه الرجال ، قال: ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب .

٢- عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب[٢] . مع رواية عبد الله بن الزبير أن النبى ﷺ كان يقول : لو أن ابن آدم أعطى واديًا ملآن من ذهب أحب إليه ثانيًا ولو أعطى ثانيًا أحب إليه ثالثًا ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب[٣] .

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٨.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ص ٤٩.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ص ١٧١.

٣- عن أبى موسى ﷺ قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه فى المدحة ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل[١] . مع رواية أبى بكر رضى الله عنه قال : ذكر رجل عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل خيرًا ، فقال النبى ﷺ : ويحك ، قطعت عنق صاحبك ؛ يقوله مرارًا .

٤- عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قال : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر[٢] مع رواية أبى هريرة عن النبى ﷺ : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قلت يا رسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد[٣] .

٥- عن البراء ﷺ قال : أهدى النبى ﷺ ثوب حرير ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه، قال النبى ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ قلنا : نعم ، قال : مناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منه[٤] مع رواية أنس أن (أكيدر) صاحب دومة بعث إلى النبى بجبة ديباج منسوج فيها الذهب ، فلبسها النبى ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم، ونزل فجعل الناس يلمسونها بأيديهم فقال : أتعجبون من هذه ، لمناديل سعد فى الجنة أحسن منها[٥] .

هذه بعض الأمثلة لما يتعدد فيه الراوى ، فيكون مظنة التبديل عند قوم مع أن كل راو قال بما سمع ، ونحن مع ذلك لا نمنع أن يكون الراوى واحدًا ، ويحدث التبديل فى بعض الألفاظ ، ولكنه من القلة بحيث يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة إذ إن فرط انتباه الرواة من صحابة رسول الله لما يصدر منه من قول ثم مراجعة أقواله واستذكارها فى حلقاتهم الخاصة ، مما يضيق مسألة التغيير اللفظى ، بحيث

(١) ، (٢) « التاج » ، ج ، ص ٣٤.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٩٤.
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٤٨.
(٥) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٤.
(٦) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٥.

لا يتسع إلى حد يظن معه بعض النحاة واللغويين أن للراوى أن يحافظ على المعنى وحده ، وله أن يأتى بالألفاظ كما يشاء ، ونضرب بعض الأمثلة لهذا القليل النادر مما صدر فيه التبديل فى حديث لصحابى واحد كان هو الراوى الأول وإن اختلفت سلسلة الرواة بعد ذلك .

١- عن أبى برزة الأسلمى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته [١] ، هذه رواية أبى داود أما رواية الترمذى : « فيا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من يتتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله [٢] .

٢- عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها [٣] . هذه رواية الترمذى ، أما رواية أبى داود فلفظها : أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا ، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه [٤] .

٣- عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ : لكل نبى دعوة قد دعا بها فاستجيبت ، فجعلت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة[٥] . هذه رواية البخارى ومسلم . أما رواية

(١) ، (٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٠ .
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤١ .
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤١.
(٥) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٢٣.

الترمذى : « فلكل نبى دعوة مستجابة ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى وهى نائلة إن شاء الله ، من مات منهم لا يشرك بالله شيئًا »[١] .

٤- عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : من لا يشكر الله لا يشكر الناس[٢] هذه رواية أبى داود . أما رواية الترمذى : من لم يشكر الناس لم يشكر الله[٣] .

٥- عن أنس رضي الله عنه من حديث عن الرسول ﷺ : إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء[٤] هذه رواية الترمذى ، أما رواية مسلم فلفظها : إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء[٥] .

على أننا بعد هذه الأمثلة المختلفة نتساءل ، هل فقد الطابع الأدبى فى أسلوب الرسول كثيرًا بهذا التبديل الذى يلحق القلة القليلة من أحاديثه ؟ إننا نعرف أن عناصر الأسلوب الأدبية كما فصلها النقد الحديث تتكون من الفكرة والصورة والتعبير . والفكرة والصورة صحيحتان دون شك فى كل ما ورد عن رسول الله ، أما التعبير فقد تغير تغييرًا طفيفًا فى البعض دون البعض ، أيكون لنا إزاء ذلك أن نرفض الاحتجاج بالحديث ، ونظن بصياغته الظنون احتياطًا لهذه القلة القليلة مما تطرق إليه بعض التبديل ، ولماذا لا نرفض الاستشهاد إذًا بالشعر العربى القديم إذ إن من اليقين كل اليقين أن الوضع قد تطرق إلى بعض أبياته ، وقد ظهر الانتحال واضحًا فى بعض ما روى (حماد وخلف) وأفاض فى ذلك أئمة الأدب بما لا مجال لإنكاره . لو اتخذنا مقياس بعض المحدثين فى إهمال الاستشهاد بالحديث كافة لمجرد ظن التبديل فى بعض الألفاظ ، فإننا نلزم حينئذ بإهمال الاستشهاد بالشعر القديم لمجرد إضافة يسيرة أو كثيرة تبرع بها بعض الرواة على ما تنوقل من القصائد

(١ ، ٢ ، ٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٧١.

(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٠٧.

(٥) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٠٧.

والأبيات . ولكننا مع ذلك نستشهد بالشعر العربى عالمين أن حاسة الذوق الأدبى لدى الناقدين تستطيع بمهارة ، أن تفرق بين الأصيل والدخيل ، ولكى لا نكون متناقضين فيما نصدر من الأحكام ، فعلينا أن نجزم بصحة الاستشهاد بالحديث النبوى اتكالاً على حاسة الذوق الأدبى لدى النقاد كيلا نزن الشيء الوحيد بميزانين مختلفين فيلحقنا التثريب .

والعجيب بعد ذلك كله : أن بعض سادتنا من النحاة واللغويين يحتجون بأقوال منثورة تعزى للأعراب دون أن يعرفوا القائل ؛ فتكون فى رأيهم موضع الاستشهاد ، مع أن تطرق التبديل والتغيير محتمل فيها احتمالاً لا يقاس باحتمال التبديل فى أحاديث مطهرة يتضافر الرواة المخلصون على تمحيصها واستذكارها أطراف الليل وآناء النهار ، إن لم يكن رغبة فى تفهم أسرارها التشريعية والأدبية فابتغاء لمرضاة الله وزلفى قريبة إلى رضوانه .. إنهم يستشهدون بأقوال منثورة معزوة إلى المجهولين من أغمار العرب ، ثم يحجمون عن الاستشهاد بآثار الرسول ، فهم مثلاً فى باب نعم وبئس يستدلون بقول الأعرابى : نعم السير على بئس العير ، ثم لا يجيزون الاستشهاد بقول رسول الله : من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغُسْل أفضل . وفى باب حذف ضمير الشأن يستدلون بقول الأعرابى : إن بك زيد مأخوذ ولا يستدلون بقول رسول الله : إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون ، وفى باب الفاعل يستدلون بقول الأعرابى : أكلونى البراغيث ، ثم لا يجيزون الاستشهاد بقول رسول الله : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، بل إنهم يضعون قاعدة خاصة فى الجر بالمجاور اتكالاً على قول بعض الأعراب (هذا حجر ضب خرب) ولا يسمحون لأنفسهم أن يرفضوا الاحتجاج بقوله ، على ندرته وشذوذه ، ونحن نعرف أن هذه الأحاديث السابقة تتردد فى كتب (ابن هشام وابن مالك) ومن تبعهما من النحاة . ولكننا لا نقصد

هؤلاء المجيزين ، بل نقصد المانعين ممن يحرمون الاستشهاد بالحديث ، ولابد أن نفصل الأمر تفصيلاً لا يحتمل اللبس فنشير إليهم موضحين :

إن أول من نص على عدم الاستشهاد بالأثر النبوى لغة ونحوًا هو (أبو الحسن على بن محمد) الأشبيلى المعروف بابن الضائع المتوفى سنة ٦٨٠ ، و(أثير الدين محمد ابن يوسف) المعروف بأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ حيث زعم أن ذلك مذهب المتقدمين والمتأخرين من علماء العربية ؛ إذ قال فى شرح كتاب « التسهيل » ما نصه :

« إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب (كأبى عمرو وعيسى بن عمرو الخليل وسيبويه) من أئمة البصريين ، و(الكسائى والفراء وعلى بن مبارك الأحمر وهشام الضرير) لم يفعلوا ذلك – أى لم يحتجوا بالحديث – وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس » .

وقول أبى حيان فى القرن الثامن الهجرى : إن ذلك مذهب المتقدمين ومن تبعهم من المتأخرين يتضمن مبالغة مفرطة إذ لو كانت المسألة موضع إجماع لترددت قبل عصره فى كتب العربية ، ولكننا لا نعرف من تعرض لها من العلماء قبله غير (ابن الضائع) وقد رد عليه (البدر الدماميني) حين قال فى حاشيته على المغنى :

« أسقط أبو حيان الاستدلال على الأحكام النحوية بالأحاديث النبوية باحتمال رواية من لا يوثق بعربيته إياها بالمعنى ، وكثيرًا ما يعترض على (ابن مالك) فى استدلاله بها ، ورده شيخنا (ابن خلدون) بأنها على تسليم أنها لا تفيد القطع بالأحكام النحوية تفيد غلبة الظن بها لأن الأصل عدم التبديل لاسيما والتشديد فى ضبط ألفاظها والتحرى فى نقلها بأعيانها مما شاع بين الرواة ، والقائلون منهم بجواز الرواية بالمعنى ، معترفون بأنها خلاف الأولى ، وغلبة الظن كافية فى مثل تلك الأحكام بل فى الأحكام الشرعية فلا يؤثر فيها الاحتمال المخالف للظاهر ، وبأن

الخلاف فى جواز النقل بالمعنى فى غير ما لم يدون فى كتب ما دوّن فلا يجوز تبديل ألفاظه بلا خلاف كما قاله ابن الصلاح ، وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول قبل فساد العربية وحين كان كلام أولئك على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به ، وغايته يومئذ تبديل لفظ يحتج به بآخر ، كذلك دون ذلك البدل ومنع من تغييره ونقله بالمعنى ، فبقى حجة فى بابه صحيحة ، ولا يضر توهم ذلك الاحتمال السابق فى استدلالهم المتأخر[1] .

وإذا كان بعض المتقدمين من علماء العربية لم يحتجوا بالحديث فقد أجاب عن ذلك المجيزون للاحتجاج – كما روى الأستاذ (محمد الخضر حسين) – بأن علماء اللغة العربية فى العهد الأول لم يتعاطوا رواية الحديث حتى يقفوا منها على ما يسعف فى الاستشهاد ، ثم إن دواوين الحديث لم تكن مشتهرة فى ذلك العهد ولم يتناولها علماء العربية كما كانوا يتناولون القرآن الكريم ، وإنما اشتهرت دواوينه ووصلت إلى أيدى أهل العلم من بعد ، فإن سلمنا عدم احتجاجهم بالحديث فلعدم انتشاره بينهم ، لا لأنهم يمنعون الاحتجاج به وأما ما ادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين فى عدم الاحتجاج بالحديث فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث ، وقد استدل بالحديث الشريف (الصقلى والشريف الغرناطى) فى شرحيهما لكتاب سيبويه و(ابن الحجاج) فى شرح المغرب ، و(ابن الخباز) فى شرح ألفية ابن معطى ، و(أبو الشلوبين) فى كثير من مسائله ، وكذلك استشهد بالحديث (السيرافى

(١) نقلنا هذا النص وما قبله من « مجلة المجمع اللغوى » – الجزء الثالث سنة ١٩٣٦ عن بحث مسهب جديد للأستاذ الأكبر (الشيخ محمد الخضر حسين) يدعو إلى الاستشهاد بالحديث ، كما رجعنا إلى ما كتبه بذلك الصدد (البغدادى) فى الجزء الأول من الخزانة ، والعلامة (الشيخ حمزة فتح الله) فى الجزء الأول من « المواهب » ، و(العلامة الصبان) فى حاشيته على « الأشمونى » ، وليس وراء ذلك موضع لتنقيب .

والصفار) فى شرحيهما لكتاب سيبويه ، وقال ابن الطيب : بل رأيت ذلك فى كلام (أبى حيان) نفسه « اهـ من مقال الأستاذ الخضر » .

ولنا أن نسأل أبا حيان بعد ذلك ما رأيه فى الأحاديث التى وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها ، إذ إن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطريق دليل على أن الراوى لم يتصرف فى لفظ ؟ ثم ما رأيه فى الأساليب البيانية المشتهرة مع جوامع كلمه ﷺ وقد سارت على كل لسان ، أيكون الرواة قد تصرفوا أيضًا فى بعض ألفاظها حين جرت بها الأفواه كالمثل الشرود . إن وجه الحق أشهر من أن يدل عليه وأخالنا نعترك فى غير ميدان .

لقد أطلنا بعض الشىء فى هذا المضمار لنخاطب من يعشقون الجدل العلمى بنصوصه المقررة ، وكان لنا عن ذلك غنى لو رجعنا إلى الشخصية الأدبية لمحمد ﷺ كما تتجلى فى أسلوبه ؛ فإنها بطابعها المتميز ، وخصائصها المنفردة تدفع ما عسى أن يثيره هذا الجدل المتزمت من غبار . فقد ترك محمد ﷺ آثارًا مشتهرة فى الخطبة والرسالة والأقصوصة والمثل والحديث المتبادل والابتهال السماوى ، وقد طبعت كلها بطابعه واتسمت بميسمه . فأنت تحس روحًا واحدة تنظم هذه الآثار المختلطة على اختلاف مناحيها ، وسنلم قريبًا بخصائص أسلوبه ﷺ فى فصل خاص يحاول أن يتعرف سماته البيانية وملامحه التعبيرية . فذلك ما ليس منه بد . ولكننا نعرض الآن أمثلة مختلفة لبعض آثاره الكريمة تنطق بطابعه البيانى العام ، وتجزم بأن صاحب هذا النسق الرائع الممتاز مبين أعظم البيان وهو فى تفكيره وتصويره وتعبيره أبعد من أن يستطيع أحد إطفاء نوره وإخماد جذوته ، بوضع لفظ مكان لفظ، أو تقديم جملة على جملة فى نصوص متماسكة يشد بعضها بعضًا كالبنيان المرصوص .

خطب رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال : نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها إلى من غاب ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم

الجماعة ، فمن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له[١] .

هذا أنموذج من خطابته يليه أنموذج من رسالته حين كتب إلى (أكثم ابن صيفى) : بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى ، أحمد الله إليك ، إن الله أمرنى أن أقول لا إله إلا الله ، أقولها وآمر الناس بها ، والخلق خلق الله ، والأمر أمر الله ، خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم ، ولتعلمن نبأه بعد حين[٢] .

أما أنموذج الأقصوصة فننقله من رواية الشيخين عن النبى ﷺ قال :

بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجرًا ؛ قال : فى كل ذات كبد رطبة أجر »[٣] .

ونأتى بأنموذج المثل فنستشهد بقول رسول الله : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا[٤] .

---

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٥٤.

(٢) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٣) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ٢٢٦.

(٤) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٢٠٨.

أما أنموذج الحديث فنحو قوله : تجدون الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه[1] .

فإذا كان لابد من أنموذج للابتهال السماوى ، فلنذكر دعاء رسول الله بين التكبير والفاتحة :

« اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد »[2] .

ألا يرى المنصف أن لأسلوب محمد ﷺ طابعًا فريدًا يلوح فى فنون أدبه وتضاعيف حديثه أنه طابع الخلوص والقصد والاستيفاء – كما قال الأستاذ الرافعى ويعنى بالخلوص النفاذ إلى اللباب من طريق سهل يسير ، وبالقصد الإيجاز الذى تحل فيه الكلمة محل جمل مترادفات ، وبالاستيفاء وقوع الكلام تامًّا مبسوطًا لا ينقطع دون الغاية .. وذلك إجمال سنبسطه ونضيف إليه حين نشرح عناصر الأسلوب المحمدى فى فصل حفيل .

على أن آية الإبداع فى تعبير محمد ، تروعك حين يتحدث عن الأحكام التشريعية بلغة الأديب ، فنحن نقرأ المواد التشريعية فى كل قانون أرضى جافة خشنة. تلوح لعقلك جامدة صماء ، وكأنما كتب على ذوى التشريع أن يجبسوا أحكامهم فى نصوص مظلمة مغلقة تتطلب منافذ الضوء فى كل حرف ، وإذا كان القرآن الكريم نسيج وحده فى إبداعه التشريعى ، فإن نبى الإسلام قد استلهمه التعبير فى أكثر ما شرع من أحكام . إنك تقرأ أحاديث محمد التشريعية فلا يعيبك أن

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٦٨.

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٧٧.

تجد طابعه الأدبى ، وأن تتلمس عناصر أسلوبه تنادى على نفسها ، وتغريك بتأملها تاليًا ومستعيدًا ، حتى لينسى القارئ أنه يطالع تشريعًا وله الحق فى ذلك ؛ فهو يقرأ أنموذجًا من الأدب القوى يعرض الفكرة القوية معرضًا أخاذًا فيبعث فيها من الحياة ما يكاد يخرج بها عن دائرة القانون فى أنظار القاصرين .

اقرأوا إن شئتم هذه الأحاديث :

١- سئل رسول الله عن ضالة الإبل فقال : مالك ولها . معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وترعى الشجر ، فذرها حتى يلقاها ربها[١] .

٢- إن أحدكم إذا قام يصلى ، جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدرى كم صلى ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس[٢] .

٣- إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه[٣] .

٤- تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، قالوا : أعملت من الخير شيئًا؟ قال : كنت آمر فتيانى أن ينظروا المعسر ، ويتجاوزوا عن الموسر فتجاوز الله عنه[٤] .

٥- لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفئ ما فى إناها[٥] .

٦- كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خداج[٦] .

---

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٧.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٧.

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٦.

(٥) « المجازات » ، ص ٥٠.

(٦) المصدر نفسه ، ص ٩١.

٧- لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما[١] .

٨- العصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضى كواهل الليل[٢] .

٩- قال لمعاذ : صل الظهر بعد ما يتنفس الظل وتبرد الرياح[٣] .

١٠- من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم ، يتردى فيها خالدًا مخلدًا أبدًا ، ومن تحسى سمًّا فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم ، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا[٤] .

وما بنا أن نطيل أكثر من عشرة أحاديث .

وقد أكثر الناقدون من القول بضرورة تأثير الشخصية الأدبية الفذة فيما وليها من الأجيال ، (فالجاحظ) مثلاً كان ذا شخصية فذة ، تركت طابعها البارز فى مئات الأدباء من معاصرين ومتأخرين ، حتى إنك لا تزال تلمس روحه فى بعض كتاب العصر الحاضر (كالبشرى والمازنى والرافعى) وغيرهم من صفوة البلغاء . وتأثير الجاحظ الأدبى إذا قيس بتأثير محمد ﷺ فى الأدب العربى كان لا شيء فقد نهج الرسول نهجًا جديدًا فى الخطابة الدينية احتذاه كل من جاء بعده ، حتى إنك تقارن بين الخطابة فى الجاهلية والخطابة فى صدر الإسلام ، فترى روحًا وثابًا نهض فجأة فى بيان الرسول ، ثم أخذ يثب فى ألسنة الخطباء ؛ إذ يرتقون المنابر فى كل موعظة . وإذا كان القرآن الكريم يضفى على الأثر الأدبى جمالاً وروعة إذا استشهد به فى موضعه ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٣.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٠.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٢.

(٤) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٤.

فإن الحديث النبوى قد شاركه هذه الميزة الجليلة ، فأصبحت كلماته وعباراته مددًا لا ينفد للبلغاء ، حتى لترتفع بالأثر إلى ذروة بيانية لا تتطاول ، اقرأ إن شئت خطب أبى بكر وعمر وعلى ، ثم انتقل إلى عظات الحسن البصرى والأوزاعى والغزالى وابن الجوزى ، بل اقرأ خطب الخوارج أنفسهم ، تجد البيان النبوى قد حلق بهم جميعًا فى أرفع أوج . ونحن الآن نطالع المقالات الأدبية لصدور البلغاء فى القديم والحديث ، فنحس الأثر النبوى فى تأييده فكرة أو تأكيد عبارة أو إيضاح رأى ، ونراه يترك فى مجاله ما يتركه الورد من نفح فواح . وإنك لتقرأ المقال ضعيفًا وانيًا ، وما تزال تحدث نفسك على إهماله حتى تجد الكاتب يلم بأثر نبوى جاء به فى مكانه ، فكأن صبحًا أضاء على غير انتظار فاكتسح الظلمات ، ولن يكون ذلك إلا بإبداع ملهم مطبوع ، له سماته البارزة التى تستعصى على التبديل والتحوير كما يتوهم الغافلون .

دع الحديث المتصل من قوله ، والخطبة الرائعة من بيانه ، والرسالة السائرة من إنشائه ، وانظر إلى إجابته العابرة على سؤال طارئ ، أو تعليقه الموجز على واقعة حال ، فإنك ترى هذا الطابع الممتاز يشع عليك نورًا من أفكاره ، ولن يقول هؤلاء المتشككون إن الراوى قد تصرف فى جملة تتركب من ثلاث كلمات وهى بعد مضرب المثل الشرود :

١- يسمع رسول الله أعرابيًّا يقول بعد صلاته : اللهم ارحمنى ومحمدًا ، ولا ترحم معنا أحدًا فيرد عليه محمد فى رفق : لقد تحجرت وسعًا .

٢- ويرى حادى المطايا يسرع بالنساء ، فيقول له : رفقًا أنجشة بالقوارير .

٣- ويصف له بالمدينة قادم من مكة بعض مشاهدها فتغرورق عيناه حنينًا لمطارح صباه ويقول فى هدوء : دع القلوب تقر .

٤- ويسأل عن صحابى لا ينام الليل بل يقرأ ويذكر فيقول : ذلك رجل لا يتوسد القرآن .

٥- ويعتب عليه الأنصار فى موقف ، فيقول لهم مبتسمًا : أنتم الشعار ، والناس الدثار .

٦- ويرى جملاً هزيلاً فيصيح بصاحبه : بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره .

٧- ويسأل عما اقترفه المؤمن قبل الإسلام فيقول : الإسلام يجب ما قبله .

٨- ويتحدث عن قرب القيامة ، فيقول : بعثت فى نسم الساعة إن كادت لتسبقنى .

٩- ويرى سائلاً يتكفف فيصيح به : اليد العليا خير من اليد السفلى.

١٠- ويسمع فى سورة هود أحاديث الغابرين ممن عصوا الله فيقول فى ألم : شيبتنى هود وأخواتها .

هذه عشرة أحاديث أخرى[١] (ولو كان المجال ذا سعة لاستفاضت من طرازها الأحاديث .

(١) أخذت جميعها من « المجازات النبوية » (للشريف الرضى) فى مواضع متفرقة .